٦ ـ شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وروى مخارق أن أبا العتاهية جاءه فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوماً تهبه ، لي فمتى تنشط ؟ فقلت متى شئت ! فقال : يكون ذلك في غد ؛ فجئته فأدخلني بيتاً له نظيفاً ، ودعا بطعام وفاكهة فأكلنا ، ودعا بألوان من الأنبذة فقال اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت ، ثم صب قدحاً وقال : غنني في قولي :

أحمدٌ قال لي ولم يَدرِ مابي ... أتحب الفداة عُتبَةَ حقاً

فغنيته ، فشرب قدحاً وهو يبكي أحر بكاء ، ثم قال : غنني في قولي :

ليس لمن ليست له حيلةٌ ... موجودةٌ خيرٌ من الصّبر

فغنيته وهو يبكي وينشج ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غنني فديتك في قولي :

خليلي مالي لا تزال مضرتي ... تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

فغنيته إياه ؛ وما زال يقترح علي كل صوت غنى به في شعره ، فأغنيه ويشرب ويبكي ، حتى صارت العتمة ، فقال أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ، فجلست ، فأمر ابنه وغلامه فكسرا كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهي ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بيضاء من صوف ، ثم عانقني وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبي. وفرحي من الناس كلهم ، سلام الفراق الذي لا لقاء بعده ؛ وجعل يبكي ، فانصرفت وما لقيته زماناً

وروى أبو سلمة الغنوي أنه قال لأبي العتاهية : ما الذي صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد ؟ فقال : إذن والله أخبرك ، إني لما قلت :

الله بيني وبين مولاتي ... أهدتْ لي الصد والملالاتِ

منحتها مهجتي وخالصتي ... فكان هجرانها مكافاتي

هيّمني حبها وصيّرني ... أحدوثة في جميع جاراتي

رأيت في المنام في تلك الليلة كأن آتياً أتاني فقال : ما أصبت أحداً تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى ، فانتبهت مذعوراً ، وتبت إلى الله تعالى من ساعتي من قول الغزل

فإذا كانت هذه الروايات كلها في حادثة واحدة فهي متضاربة متدافعة ينقض بعضها بعضاً ؛ وإذا كان الرشيد هو الذي كان يأخذ على أبي نواس اندفاعه في اللهو ويحاسبه على ذلك في شعره ، ويحبسه عليه مرة بعد مرة ويزج به في سجنه ، فكيف يتفق هذا مع ذلك المسلك الذي كان يسلكه مع أبي العتاهية ، وهو لم يكن أرق غزلاً من أبي نواس ولا غيره من جمهور الشعراء الذين كانوا يلتفون بالرشيد ، وكان لهم من رقيق الغزل ما يغنيه عن غزل أبي العتاهية ؟ وليس هذا وذاك كل ما يعنينا من هذه الروايات ، بل يعنينا منها أيضاً أنها لا تصل بنا إلى غور نفس أبي العتاهية وصلتها بتلك النزعة الصوفية التي صارت إليها ، وقد كان في ظاهر أمره أبعد الناس منها ، فلا تبين لنا تلك الروايات إلا أنها حالة طرأت عليه في بغداد ، ولا تتصل إلى سابق أمره بصلة ، وتردها الرواية الأخيرة إلى تلك الرؤيا المنامية السابقة ، وهي إذا صحت لا تكفي وحدها في الأخذ به إلى كل ما أخذ به من ذلك الغلو في أمره ؛ فإذا أمكننا أن نصل إلى هذه النواحي الغامضة من أمر أبي العتاهية أمكننا أن نفهم من أمره ما لم يفهمه الناس منه إلى الآن . وسنجلو من أمر ذلك ما نحتاج إليه هنا ، ونترك ما بقي من ذلك إلى موضعه من هذه الدراسة لأبي العتاهية ، ليكون لنا منها دراسة منظمة لا يسبق شيء منها على موضعه ولا يتأخر عنه

وإنه ليهمنا في الأول أن ننفي ما يفيده ظاهر تلك الروايات من أن تلك النزعة الصوفية في أبي العتاهية كانت نزعة طارئة عليه في بغداد ، والحقيقة أنها كانت نزعة قديمة عنده ، وأن أمرها يرجع إلى مبدأ أمره بالكوفة ، وأنه كان يخفي ذلك في نفسه ليظهر به في الفرصة التي يكون له فيها أثره في الناس جميعاً ، لا في نفسه وحده . ودليلنا في هذا هذه الرواية التي تنطق بأن القول في الزهد كان أول ما أخذ به في شعره

روى محمد بن عبد الجبار الفزاري أن أبا العتاهية اجتاز في أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به في الكوفة ويبيع

منه ، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه ، فسلم ووضع القفص عن ظهره ، ثم قال : يا فتيان ! أراكم تذاكرون الشعر ، فأقول شيئاً منه فتجيزونه ، فان فعلتم فلكم عشرة دراهم ، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم ، فهزئوا به وسخروا منه ، وقالوا نعم ، قال : لابد أن يشترى بأحد القمرين رُطَبٌ يؤكل ، فانه قمرٌ حاصل ، وجعل رهنه تحت يد أحدهم ، ففعلوا ، فقال أجيزوا :

« ساكني الأجداث أنتم »

وجعل بينه وبينهم وقتاً فى ذلك الموضع إذا بلغته الشمس ، ولما لم يجيزوا البيت غرموا الشخطير ، وجعل يهزأ بهم وتممه :

ساكني الأجداث أنتم مثلنا بالأمس كنتم
ليت شعرى ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

وهى قصيدة طويلة فى شعره

فهذه نزعة أبي العتاهية فى الزهد والتصوف ظاهرة فيه تمام الظهور من أول أمره ، ولا شك أنه رأى بعد هذا أن يتصل بشعراء الكوفة ليظهر بينهم أمره فى الشعر ، وأنه فى سبيل هذه الغاية أخفى هذه النزعة فى نفسه ، وأخذ يسلك فى اللهو والشعر مسلك هؤلاء الشعراء ، ثم تركهم إلى بغداد عاصمة المملكة العباسية لينال من ظهور الشأن بالاتصال ببني العباس ما لا يناله لو بقى بالكوفة ، فنال من ذلك بغيته وأكثر من بغيته ، وأخذت نفسه تنازعه ميلها إلى الزهد ، وإلى الظهور بمظهره الحقيقى الذى يريد أن يعكر فيه صفو هؤلاء الملوك ، ويطلع الرعية على إسرافهم فى الحياة ، وغفلتهم عن الآخرة ، وانصرافهم عن مناهج الخلفاء الراشدين ، وسبل الملوك الصالحين ، ويخدم فى ذلك بمهارة فائقة أغراضاً سياسية له ، سنبينها بعد فى موضعها أيضاً

ولا غرابة بعد هذا فى أن يهتم الرشيد بأمر أبي العتاهية فى هذه الحال الجديدة ، ويعرف سوء أثر شعره فى الزهد وما إليه فى نفوس الرعية بالنسبة إليهم ، وقد كان يشاهد افتتان الناس بأبي العتاهية وشغفهم بشعره الذى قرب إليهم ألفاظه ومعانيه ، وفتح لهم من أبوابه ما أغلقه الشعراء السابقون ، فصار يلهج به العابد فى خلوته ، والراهب فى صومعته ، والملاح فى سفينته ، والفلاح فى حقله ، والراعى فى غدوه ورواحه ، والعامل فى شغله وفراغه ، حتى صار شاعر الشعب بحق ، ولسان الرعية الناطق بالصدق . وإنا نسوق من ذلك ما يدل على مقدار تعلق الناس بشعر أبي العتاهية وافتتانهم به :

قال يحيى بن سعيد الأنصارى : مات شيخ لنا ببغداد ، فلما دفناه أقبل الناس على أخيه يعزونه ، فجاء أبو العتاهية إليه وبه جزع شديد فعزاه ثم أنشده :

لاتأمن الدهر والبَس لكل حين لباسا
لَيَدْفِنَنَّا أناس كما دَفَنَّا أناسا

فانصرف الناس وما حفظوا غير قول أبي العتاهية

وقال محمد بن صالح العلوى أخبرنى أبو العتاهية قال : كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه ، فقيل ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية ، وهو فى الحبس ، قال فوجه إلىَّ الرشيد : قل شعراً حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر باطلاقى ، فغاظنى ذلك فقلت : والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسره ، فعملت شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطَّرْفُ الطَّموحُ . أيها القلبُ الجموحُ
لدواعى الخير والشـ ـر دُعُوٌّ ونُزُوحُ
هل لمطلوب بذنب توبة منه نَصُوحُ
كيف إصلاحُ قلوب إنما هُنَّ قُرُوحُ
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوحُ
فاذا المستور منا بين ثوبيه فُضُوحُ
كم رأينا من عزيز طُوِيتْ عنه الكُشُوحُ
صاح منه برحيل صائحُ الدهر الصَّدُوحُ
موتُ بعض الناس فى الأر ض على قوم فُتُوحُ
سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روحُ
بين عينى كل حىٍّ عَلَمُ الموت يلوحُ
كلنا فى غفلة والـ ـموتُ يغدو ويروحُ
لبنى الدنيا من الدنـ ـيا غَبُوقٌ وصَبُوحُ
رُحْنَ فى الوشى وأصبحـ ـن عليهن المُسُوحُ
كل نَطَّاحٍ من الدهـ ـر له يوم نَطُوحُ

نُحْ على نفسك يا مسـ ... كين إن كنت تنوح
لَتَمُوتَنَّ وإن عُمِّـ ... رْتَ ما عُمِّرَ نُوح

فلما سمع الرشيد ذلك جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً وقت الموعظة ، وأشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا

وقد اختار أبو العتاهية عهد الرشيد لاظهار ما كان يخفيه في نفسه من ذلك لأنه كان أقل غلظة من أبيه المهدى ، وأخيه الهادى ، وأخف منهما عسفاً وبطشاً . وقد ذكر ابن خلكان أنه أراد أن يظهر بذلك في عهد المهدى ، فأمر المهدى بحبسه في سجن الجرائم ، فلما دخله دهش ورأى منظراً هاله ، فطلب موضعاً يأوى فيه ، فاذا هو بكهل حسن البزة والوجه ، عليه سيما الخير ، فقصده وجلس من غير سلام عليه ، لما هو فيه من الجزع والحيرة والفكر ، فمكث كذلك مليا وإذا الرجل ينشد :

تعودتُ مسَّ الضر حتى ألفته ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وصيرني يأسي من الناس واثقاً
بحسن صنيع الله من حيث لا أدرى

فاستحسن أبو العتاهية البيتين وثاب إليه عقله ، فقال له : تفضل أعزك الله عليّ باعادتهما ، فقال : ياإسماعيل ويحك ! ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك ! دخلت فلم تسلم عليّ تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم ! فقال له : اعذرني متفضلاً ! فدون ما أنا فيه يدهش ! قال : وفيم أنت تركت الشعر الذى هو جاهك عندهم ، وسببك إليهم ؟ ولابد أن تقوله فتطلق ، وأنا يدعى الساعة بي فأطلب بعيسى بن زيد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان دللت عليه لقيت الله تعالى بدمه ، وإلا قُتلت ، فأنا أولى بالحيرة منك ؛ ثم دعى بهما فطولب الرجل بأن يدل على عيسى بن زيد فأبى ، فأمر المهدى بضرب عنقه . ثم قال لأبي العتاهية : أتقول الشعر أو ألحقك به ؟ قال بل أقول ، فأمر به فأطلق

وقد كان الرشيد أشفق بكثير مع أبي العتاهية في ذلك من أبيه . والذى أراه أن الرشيد كان يحبسه في ذلك ثم يعفو عنه ، وأن ذلك تكرر منهما بقدر ما حدثتنا به تلك الروايات السابقة ؟

عبد المتعال الصعيدى

٢٧ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

قال : أما إن كانت الروح يا أصدقائي خالدة حقاً ، فما أوجب العناية بها ، ليس في حدود هذه الفترة من الزمن التي تسمى بالحياة وكفى ، بل في حدود الأبدية ! وما أهول الخطر الذى ينجم عن إهمالها بناء على هذه الوجهة من النظر . لو كان الموت خاتمة كل شيء ، لكانت صفقة الأشقياء في الموت راجحة ، لأنهم سيتخلصون بخلاصهم ، لا من أجسادهم فحسب ، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً . أما وقد اتضح في جلاء أن الروح خالدة ، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول على الفضيلة السامية والحكمة العليا ، لأن الروح لا تستصحب معها شيئاً في ارتقائها إلى العالم السفلى ، اللهم إلا التهذيب والتثقيف ، اللذين يقال عنهما بحق إنهما ينفعان الراحل أكبر النفع أو يؤذيانه أكبر الأذى ، إذا ما بدأ حجته إلى العالم الآخر

فبعد الموت ، كما يقولون ، يقود كلَّ امرئ شيطانُه (١) الذى كان تابعاً له في الحياة ، إلى مكان معين يتلاقى فيه الموتى جميعاً للحساب ، ومن ثمَّ يأخذون سمتهم نحو العالم السفلى ، يقودهم دليل نيطت به قيادتهم من هذا العالم إلى العالم الآخر ، فاذا ما لقوا هناك جزاءهم ولبثوا أجلهم ، رجع بهم ثانية بعد كر الدهور المتعاقبة دليل آخر ، وليست هذه الرحلة للعالم الآخر ، كما يقول اسكيلوس Aeschylus في « التلفوس » Telephus ، طريقاً واحدة مستقيمة ، وإلا لما احتاج الأمر إلى دليل ، فلم يكن أحد ليضل في طريق واحدة ، ولكن الطريق كثيرة الشعب والحنايا ، وإني لأستنتج ذلك مما يُقدَّم إلى آلهة العالم السفلى من الشعائر والقرابين ، في أمكنة من الأرض تتلاقى عندها سبل ثلاث ..

(١) في الأصل Genius ومعنا روح طيبة أو خبيثة تسيطر على الانسان وتملي عليه كل أعماله منذ ولادته حتى يأتيه الأجل